إلى الأستاذ نرفيق الحكيم

الفن والاصلاح

للأستاذ عبد المنعم خلاف

كلما ثار الجدل فى مصر حول تقدير الفن وإطلاق حريته أو تقييدها بقيود صالح الجماعة والمحافظة على دعائم حياتها ، استحضرت فى نفسى صوراً من الطبيعة ومن حياة الأمم التى تمثل النزعتين لأجد القول الفصل الذى يقرب نفسى من الصواب ؛ فإنى أرتاح دائماً إلى أحاديث الطبيعة الأستاذة ، وإلى أحكام الحياة الصادقة الناجحة ، وأتخذهما أساسين لصحة الأفكار والأعمال غير عابىء بعد ذلك بما يرسله المنطق اللفظى والجدل النظرى

وأنا الآن بسبيل تحكيم هذين الأساسين فى القضية التى أثارها الأستاذ الكبير أحمد أمين بك ، وجادلها وعلق عليها الكاتب الفنان توفيق الحكيم ، وهى : آلفن للفن ؟ أم الفن للحياة ؟

* * *

فأما الطبيعة وهى أستاذتنا التى أورثتنا عقولنا وعلومنا وفنوننا وتجاربنا ، وعرضت لنا نفسها عرضاً مكشوفاً لنراها ونعرف أسرار علم بارئها وفنانها الأعظم . . . فقد أرشدتنا — لو كنا نسترشد بها — إلى أن الفن فيها إنما هو وسيلة للنفع والمصلحة لا للترف ولا لإطلاق عبقرية الخلق والتجسيم والتشكيل والتلوين على هوى طليق غير منسجم مع الاتجاه العام فى الطبيعة كلها

وقد أرشدتنا كذلك إلى النسبة التى يجب أن يكون الفن بها فى الحياة وإلى ترتيب وجوده وظهوره فى كائناتها . والذى لا شك فيه أن فى كل شىء فى الطبيعة عملاً ضرورياً وعملاً فنياً . والعمل الضرورى هو الذى يضمن حياة الكائن ضماناً مباشراً . والعمل الفنى هو الذى يضمن حسن إخراجه ، ولفت الأنظار إليه وحمل الأحياء على الانتفاع به والمحافظة على استمرار نوعه وحمايته . ومن وراء ذلك الظاهر الفنى نظرة علمية دقيقة مدركة لغاياتها ووسائلها جادة مقتصدة غير هازلة ولا مسرفة .

فوجود « الكيان » المادى « وتجسيمه » وإقامة « هياكله » الضرورية وتهيئة أسباب نفعه واستمرار وجوده هى محاور العمل الطبيعى الدائم فى عالم الجماد والنبات والحيوان ، وهى الجهد المبذول فى دؤوب واستمرار فى جميع الفصول والمواسم ، ثم يأتى بعد ذلك دور التجميل والإخراج

فالجذور فى النبات مثلاً لا جمال فيها ولا زينة وإنما هى عاشقة للظلمات والمغونات ، سارية أبداً بين الصخور والعقبات ، جاهدة باحثة عن الضروريات . فهى تقوم بأعظم العمليات وأدومها وأشقها وأنفعها لحياة الشجرة . ومع ذلك لا تحظى من تقدير السطحيين من الناس بما تحظى به زهرة خادعة فانية محدودة النفع والعمر من الزهرات التى هى من فن تلك الشجرة والتى هى فى الواقع خدعة من خدع تلك الشجرة لجلب اللقاح وتكثير النوع وحفظه

ولا جدال فى أنه خير للشجرة ولصاحب الشجرة أن يحافظ على جذرها الأعوج القبيح ساكن الظلام ليحفظ أوليات حياتها ويرفدها بعوامل النماء ، من أن يعنى بكثرة زهرها الجميل فى فترة من فترات حياتها ويهمل جذرها حتى يمرض ويصيبه العجز والكلال عن السعى لغذائها . فإن بقاء الجذر صحيحاً عاملاً كفيل ببقاء الأمل فى حياتها واستمرار وجودها وإنتاج ثمارها وأزهارها . وإن فى الأشجار منافع كثيرة قد يكون جمال الأزهار أقلها عند من يقدرون العناصر الأساسية للحياة . واسألوا جانيات الشوك وجامعى الأحطاب من البرارى والقفار والوديان : أليسوا يمرون على الأزهار البرية الجميلة الفواحة العطر لا يعبأون بها كما يعبأون بالأشواك والأحطاب يجمعونها ليوقدوا النيران ويقيموا الجدران ، طلباً للدفء والمأوى بين الأهوال القاسية التى تهدد حياتهم الضرورية ؟

كذلك البؤساء مادياً ومعنوياً ، المجهودون المنهوكون من السعى فى سبيل القوت والحق والعدالة يمرون بالتحف الفنية والآثار الأدبية التى أنتجت للترف العقلى والأعاجيب الذكاء وإزجاء حياة الفارغين الهانئين كما تمر جانيات الشوك وجامعو الأحطاب بالأزهار البرية التى لا توقد ناراً ولا تقيم مأوى !

وينبغى ألا نجعل هوايات المترفين مادياً أو عقلياً مقياساً

للأحكام حين نتحدث عن المسائل الكبرى التي تمس إصلاح مجتمع لا تزال أكثر آلامه ناشئة من التفاوت الفاحش مادياً وعقلياً بين طبقتيه العالية والسافلة ، المترفة وهي قلة ، والمجهودة المنهوكة وهي الكثرة ؛ فإن الإنصاف يقضي أن تكون المقاييس منتزعة من حياة الكثرة التي هي أشد التصاقاً بضروريات العيش ، وأرهف إحساساً بمشكلاته ، وأعظم تعرضاً لآلامه ونكباته ، وأقوى اضطلاعاً بخدماته

ومن هنا أخطأ الأستاذ توفيق الحكيم حين هون من شأن الجهود الأدبية الإصلاحية لما وازنها بالآثار الفنية الخالصة متخذاً حجته من ضياع كثير من نتاج الأولى وبقاء كثير من الثانية في ذاكرة الزمان ، وحين قرر أن الأدب الأوربي لم يبلغ مبلغه العظيم بفضل نزوله معترك الحركات الإصلاحية ، وإنما بفضل قيمته الفنية ، وأن الآداب الأوربية لم تحترم يوماً فناناً أو أديباً لأنه مصلح ، ولكنها قد تحترم المصلح إذا كان أديباً أو فناناً ، وأنه لا ينبغي للنقاد والمصلحين أن يملوا على الفن اتجاهاً بعينه ولا يجوز لهم أن يوصوه بالحكمة والإصلاح إلا أن يشاء هو ويرضى . لأن الفنان صانع المصلح ، ومصلح المصلح . . . وحين قرر مع الأستاذ الكبير العقاد أن اتجاه التاريخ الإنساني متقدم من الاجتماعية إلى الفردية وقرر أن الوعي الاجتماعي في الحيوان هو الذي جعل الحيوان حيواناً . . .

إن المصلح هو الذي يمهد للجماعة أن تحيا وتستكمل عناصر نموها وكمالها حتى يكون فيها فنانون وعلماء وقادة وصناع وزراع . . . حتى يكون فيها جذور الحياة وثمارها وأزهارها . . . وعمله هو السابق المهيئ لنضج الملكات الفنية والكفايات الأدبية التي تَرِدُ في عهود الجمود والجهالة موارد محدودة ومشارع آسنة . ولا جدال في أن الكفاية الفنية في الفنان والأديب تتسع وتعمق كلما كثرت أمامها منابع الوحي وجداول الأفكار والأعمال والمشاهد . ومَن الذي يهيئ لها هذا كله غير المصلح الذي تستهوي نفسه دائماً حياة النفع العام والتهذيب العام والكمال العملي ، ويأخذ نفسه من نفوس أمته ويتسع قلبه لمؤثرات الحياة والاجتماع ويدرك أكثر أسرارها ؟

وقد يكون الفنان — وهو في الغالب محدود الهواية — يهوى جانباً معيناً من الحياة ويغلبه وجدان واحد يستولي عليه ويصبغ إنتاجه بصبغة واحدة ، فلا يستطيع أن يدرك جوانب الحياة الأخرى إلا إذا كان فناناً عبقرياً موسوعياً واسع الثقافة متعدد الأوتار ؛ فإنه حينئذ يلتقي بالمصلح بل يكون هو المصلح . . . إذ أن المصلح في واقع الأمر فنان ولو لم ينتج آثاراً فنية . بل هو أعظم من فنان . . . هو « مخرج » يخرج حياة أمته وينسقها وينظم شؤونها ويعرضها عرضاً جميلاً . والمخرج كما يعلم الأستاذ الحكيم أصبح الآن هو الكل في الكل في إبراز الفنون العليا في الحياة الحاضرة . ولولاه لم يستطع الفن أن يغزو الحياة الآن هذا الغزو الشامل ، ولم يكن لكثير من الفنانين الفرعيين إلا ذكر ضئيل

المصلح هو رائد « فن الحياة » وهو لا شك أعظم الفنون ! لأن الحياة يجب أن « تعاش » أولاً في طمأنينة وسعادة وعدالة يشعر بها الجميع . ثم يأتي بعد ذلك دور « فلسفتها » التي تحلو للمترفين عقلياً من الفلاسفة والفنانين والأدباء الطلقاء الفارغين

وللمصلح بما له من هذه الوصاية الشاملة أن يقول للفنان : إنك « نشاز » في جوقة أمتك . . . أو هادم لوحدتها ، أو خارج على حدود مجتمعها ، أو مفسد لمثلها الأعلى ، أو مبلبل لخواطرها . وله أن يقترح عليه عملاً بعينه يراه لازماً لكمال الإخراج في حياة أمته ، وله أن يقتضيه « الضريبة الأدبية » في مستوى معين ليردها على الفقراء في الإحساس الذاتي بالفن والجمال

إن حياة الاجتماع الإنساني شأن عظيم ! بل هي أعظم شؤون الإنسان : فمنها تفجرت ينابيع فكره ولغته وراحته وعلومه وفنونه وصناعاته ، ومنها أدرك قوة نفسه بين غمرات القوى العمياء ، بل منها أدرك « فرديته » وحريته وحقوقه ، ومنها ظهرت تفاعلات نفسه مع جنسه هذا التفاعل الذي أخرج كوامن نفسه وخصائص جنسه . فليس من الحق أن تهدر حقوقها في سبيل حقه ولو كان فناناً . . . وليس من الصحيح أن يقرر أن الإنسان سائر من الاجتماعية إلى الفردية حتى في الفن . إلا أن يكون هذا انتكاساً . وليس من الصحيح أن الوعي الاجتماعي في الحيوان هو الذي جعله حيواناً . وأنه بالتالي كلما كثر الإحساس بالجماعة في جماعة ما ، كان هذا دليلاً على أنها أدنى إلى حياة الحيوان . . . كلا ! هذه أحكام لا أدري كيف أرسلها الأستاذ الحكيم ؟ !

فالواقع أن نسبة الغيرية والإيثار والإحساس بالجماعة وبالجنس البشري كله والتضحية بالنفس في سبيلهما — وهي دعائم الاجتماع — تنمو نمواً عظيماً . وليس من هذه الصفات شيء